

مراحل الوعي الإنساني

من وهم الإرادة إلى سلام الوعي

يمكن النظر إلى تطور الوعي الإنساني بوصفه انتقالاً عبر ثلاث مراحل في علاقة الإنسان بذاته وإرادته والعالم: مرحلة الوهم، ومرحلة العقل، ومرحلة الوعي بالذات.



مرحلة الوهم

في المرحلة الأولى يعيش الإنسان تحت تأثير أنه اللاواعية دون أن يدرك ذلك. تنشأ فيه الرغبات والمخاوف والأفكار والدوافع، لكنه ينسبها جميعاً إلى «أنا» يعتقد أنها مستقلة وحرّة تماماً.

يقول: «أنا أريد»،

فيفترض أنه المصدر الأول لإرادته، دون أن يتساءل: لماذا أريد ما أريد؟ ولماذا أفكر بهذه

الطريقة دون غيرها؟

وهنا يكمن الوهم؛ ليس في وجود الإرادة، بل في الاعتقاد بأنها تظهر من العدم، منفصلة عن تجاربنا وماضينا وبيئتنا وطبيعتنا وعن شبكة الأسباب التي شكّلتنا.

مرحلة العقل

في المرحلة الثانية يكتشف الإنسان أن لإرادته حدوداً، وأنه لا يستطيع التحكم في كل ما يحدث.

ف يبدأ باستخدام العقل لفهم علاقات السبب والنتيجة، ويتعلم من الماضي ويخطط للمستقبل ويحاول تغيير ما يستطيع تغييره.

وهنا ينتقل من وهم السيطرة المطلقة إلى موقف أكثر واقعية:

أنا لا أتحكم في كل شيء، لكنني أستطيع فهم بعض الأسباب والتعامل معها.

فالعقل لا يحررنا من قوانين الواقع، لكنه يساعدنا على الحركة داخله بوعي أكبر.

مرحلة الوعي

ثم تأتي مرحلة أعمق، حين يدرك الإنسان أن أفكاره ورغباته ومخاوفه، بل وحتى رفضه ومقاومته للأحداث، لا تظهر من فراغ. لكل منها أسباب وشروط أدت إلى ظهورها.

عندها لا تعود «الأنا» كياناً يقف خارج العالم ويوجه أحداثه، بل تصبح هي نفسها جزءاً من العالم ومن شبكة سببية أكبر منها.

وهنا يتغير معنى الحرية. فالحرية لا تعود قدرة على الخروج من السببية أو خلق إرادة من العدم، بل تصبح وعياً بالأسباب التي تعمل فينا ومن خلالنا.

نحن لا نتحرر من شبكة الأسباب، وإنما نتحرر تدريجياً من وهم أننا نقف خارجها.

هل نحن أوراق في مهب الريح؟

لكن هذا يطرح سؤالاً طبيعياً: إذا كان كل شيء خاضعاً للسببية، فهل نحن مجرد أوراق في مهب الريح تفعل بنا الأقدار ما تشاء؟

السببية لا تعني بالضرورة السلبية. إنها تعني أن ما أنا عليه الآن، وما عليه الآخرون والعالم، لم يأت من فراغ. هناك أسباب وتجارب وظروف سابقة جعلت اللحظة الحالية على الصورة التي هي عليها.

وهذا الفهم قد يخفف من جلد الذات وقسوتنا في الحكم على الآخرين. فبدل أن أقول: «كان يجب أن أكون شخصاً آخر»، يمكنني أن أسأل: «ما الأسباب التي جعلتني أتصرف بتلك الطريقة؟». وبدل أن أطلب الآخر بأن يكون كما أريده، أحاول فهم الظروف والأسباب التي جعلته ما هو عليه.

وهذا لا يعني تبرير الخطأ أو الأذى، بل الانتقال من اللوم المجرد إلى فهم الأسباب.

فما قد صار، قد صار، ولن يغير رفضنا له شيئاً.

الماضي يُفهم والمستقبل يُصنع

لكن قبول الماضي لا يعني الاستسلام للمستقبل.

فالمستقبل لم يقع بعد، وإذا ظلت الظروف والأفكار والسلوكيات كما هي، فمن المتوقع أن تنتج عنها نتائج متشابهة. أما إذا أردنا نتائج مختلفة، فعلينا أن نحاول إدخال أسباب جديدة في المعادلة.

قد يكون ذلك معرفة جديدة، أو تغيير عادة، أو مراجعة فكرة، أو تغيير بيئة، أو اتخاذ قرار مختلف.

وكل تغيير نحدثه اليوم يصبح بدوره سبباً يشارك في تشكيل ما سيأتي غداً.

وهنا تظهر المفارقة:

نحن خاضعون للسببية، لكننا في الوقت نفسه جزء منها.

لسنا واقفين خارج نهر الأحداث لنأمره بأن يسير حيث نشاء، لكننا أيضاً لسنا مجرد أوراق مينة يحملها التيار. أفكارنا وأفعالنا وقراراتنا نفسها تدخل في حركة النهر وتصبح أسباباً لنتائج لاحقة.

وحتى قدرتنا على إنتاج فكرة جديدة لا تأتي من العدم.

فقد تكون نتيجة كتاب قرأناه، أو شخص التقينا به، أو تجربة عشناها، أو ألم دفعنا إلى إعادة التفكير.

لكن عندما تظهر هذه الفكرة، فإنها تصبح بدورها سبباً جديداً لما سيأتي بعدها.

فنحن نتيجة لأسباب سابقة، وفي الوقت نفسه سبب لنتائج لاحقة.

من اللوم إلى المسؤولية

من هنا يتغير السؤال الذي نواجه به الحياة.

بدل أن نظل أسرى لسؤال: من المذنب؟ يمكننا أن نسأل:

ما الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة؟ وما الذي يمكن تغييره لكي تصبح النتيجة القادمة مختلفة؟
بهذا المعنى لا تقود السببية إلى الاستسلام، بل إلى نوع أكثر واقعية من المسؤولية.

وحيث نفهم أن خوفنا و غضبنا وأخطائنا ومقاومتنا نفسها لها أسباب،

تخف الحرب الداخلية.

نستطيع أن نفهم أنفسنا دون جلدنا، وأن نفهم الآخرين دون أن نبرر أذاهم.

وهنا يمكن أن يبدأ السلام الداخلي: ليس من السيطرة الكاملة على الحياة، بل من فهم موقعنا داخلها.

ويمكن اختصار المراحل الثلاث هكذا:

في مرحلة الوهم:

أنا أريد، إذن أنا حر.

في مرحلة العقل:

أنا محدود، ولذلك سأفهم وأخطط وأغير ما أستطيع.

وفي مرحلة الوعي:

أنا جزء من هذا الكل؛ إرادتي وأفكاري وأفعالي جزء من حركته.

وعندها ننظر إلى الماضي بالفهم بدل اللوم، وإلى الحاضر بالوعي بدل الرفض،

وإلى المستقبل بالفعل بدل الاستسلام.

فالحرية ليست خروجاً من السببية، بل وعياً بموقعنا داخلها.

الماضي نفهم أسبابه، أما المستقبل فنشارك في صنع أسبابه.

عدنان عبد الستار & أمل ابراهيم

11.09.2026